الفصل الخامس

نقد الأصول

تعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه *

الأهمية فى معرفة شخص كاتب الأصل أو المؤلف – أمثلة : رسالة ابن معن فى سنة ١٥٨٥ – مؤلف أخبار رحلة الأمير فخر الدين المعنى إلى إيطاليا من سنة ١٦١٣ إلى سنة ١٦١٨ – شىء عن المصادمات البحرية بين العثمانيين والنمسكان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر – كاميل ديمولان فى باريس فى ٢٤ يونيو سنة ١٧٨٩ – سفير السذقية فى باريس فى أواخر يونيو سنة ١٧٨٩ – مخطوطة عن أخبار الدولة المصرية فى سورية فى زمن إبراهيم باشا – جمع المعلومات عن شخصية المؤلف – معرفة زمن التدوين – تحديد مكان التدوين .

حينما يثبت للباحث فى التاريخ أن الأصل أو المصدر التاريخى صحيح وغير مزيف ، فليس معنى ذلك أن المعلومات الواردة به ذات قيمة تاريخية كبيرة . ولابد من نقد الأصل التاريخى من نواح أخرى . وتحمل بعض الأصول اسم مؤلفها ، وزمان تدوينها ومكانه . وبعض الأصول التى تكون متسمة بطابع الصحة وعدم التزييف ، تُغفل أحياناً ناحية أو أكثر من هذه النواحى . فيُنقص ذلك من قيمتها التاريخية . فكيف يقدر الباحث قيمة الأصل التاريخى وهو يجهل اسم مؤلفه وشخصيته وعلاقته بالحوادث التى كتب عنها ؟ فهل شهدها بنفسه أم سمعها ونقلها عن الغير ؟ ومتى دوّنها ؟ هل دونها فى أثناء وقوع الحوادث أم بعدها بزمن قصير أم طويل ؟ وفى أى مكان تم ذلك التدوين ؟ أفى مكان وقوع الحوادث أم فى مكان بعيد عنه ؟ من الضرورى معرفة كل أو أغلب هذه النواحى ، بقدر المستطاع . فكيف السبيل إلى ذلك ؟

إن معرفة كاتب الأصل التاريخى وشخصيته مسألة هامة ؛ لأن قيمة المعلومات التى يوردها ترتبط كل الارتباط بشخصية الكاتب ومدى فهمه للحوادث ، وبكل الظروف التى تحيط به على وجه العموم . فالمعلومات التى يدونها الأمير أو الحاكم

* هذا هو المقصود بلفظ (localization) .

أو الوزير أو السياسى أو صاحب المهنة أو الجندى أو الأستاذ أو الفلاح ، تختلف وتتفاوت قيمتها بحسب حالة كل منهم . وكاتب الأصل التاريخى سواء أكان شاهد عيان أم اعتمد على غيره من شهود العيان أو الرواة ، يعدّ الواسطة التى يصل المؤرخ عن طريقها إلى الوقائع التاريخية . فإذا كان الكاتب ثقة عدلا بعيداً عن الأهواء بقدر المستطاع ، كانت معلوماته أقرب إلى الصحة بصفة عامة ، والعكس صحيح .

وعلى ذلك تتضح أهمية البحث لمعرفة أكبر قسط ممكن من المعلومات عن كاتب الأصل أو الوثيقة التاريخية . وفى هذه الناحية وغيرها من نواحى نقد الأصول التاريخية ، يصبح عمل المؤرخ شبيهاً بعمل القاضى ، وإن اختلفت الظروف . فالقاضى يمتاز بأن شهود الحوادث أحياء أمامه — فى الغالب — وينطقون بالحق أو بالكذب ، ولكن هذا المثول لايتوفر للمؤرخ ، الذى عليه أن ينتقل من الحاضر إلى الماضى بالعقل والنقد والخيال .

وأحياناً تضيع عبثاً جهود المؤرخ لمعرفة اسم كاتب الأصل التاريخى وشخصيته ، فيظل مجهولا ، وإن كان هذا لا يمنع من الإفادة به ، إذْ ربما يكون هذا الكاتب المجهول هو المصدر الوحيد لما قدّمه من المعلومات . ومن ذلك مثلا أن كاتباً مجهولا — ربما كان إغريقيًّا — وضع فى حوالى سنة ٦٠ م . ما يسمى بـ « الطواف بالبحر الإريترى » — ويُقصد به البحر الأحمر والخليج الفارسى والمحيط الهندى — وصف فيه الموانى التى مرّ بها ، من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسى فالهند فساحل شرقى أفريقيا . وقد قدّم لنا ذلك الكاتب معلومات طريفة عما شهده فى تلك الأنحاء * .

ونجد مثالا آخر لما يمكن أن يفيده الباحث فى التاريخ بما يدوّنه كاتب مجهول ، ما سجّله رجل مجهول الاسم من المذكرات عن رحلة ڤاسكو دا جاما البرتغالى فى أواخر القرن الخامس عشر حول رأس الرجاء الصالح واتجاهه إلى ساحل

* Periplus of the Erythraean Sea, trans. by W H. Schoff London, 1912.
Pearce, F.B. : Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa. London, 1920, pp. 22-34.

شرق أفريقيا . وقد دوّن ذلك الكاتب المجهول — فيما دوّنه — مشاهداته فى مواضع متعددة مثل موزمبيق ومومباسا وماليندى وذكر زنجبار باسم جانجيبر ، المستمد من لهجة تلك المنطقة . ولو لم يسجل لنا هذا الكاتب المجهول معلوماته لظلت أخبار رحلة ڤاسكو دا جاما مجهولة (١) . وكم من فضل لا يُعرف صاحبه !

وفى بعض الأحيان لا يستطيع المؤرخ إلا أن يجمع القليل من المعلومات عن كاتب الأصل التاريخى ، فما عليه عندئذ إلا أن يقرّ بذلك ، ويدرس المعلومات الواردة فى نطاق العصر أو الناحية التى تتصل بها ، ويمكنه أن يقيّمها على نحوٍ ما ، ويفيد منها بقدر المستطاع .

وينبغى أن نلاحظ أن وضع اسم شخص ما على أصل تاريخى لا يعنى حتماً أنه هو كاتبه كله أو بعضه . وفى أحوال كثيرة يمكن للمؤرخ أن يتعرف على كاتب الأصل التاريخى المخطوط بدراسة نوع الورق والخط والحبر ، واللغة والأسلوب ، والمصطلحات الخاصة بالعهد التاريخى المعين ، وبدراسة المعلومات التاريخية الواردة به .

وإنه ليختلط الأمر أحياناً على الباحث فى التاريخ ، فيخطئ فى نسبة الأصل التاريخى إلى كاتبه الحقيقى . ومن الأمثلة على ذلك رسالة اختلف بشأنها باحثان كبيران هما الأب بولس قرألى والأستاذ عيسى إسكندر المعلوف . فالأب بولس قرألى يقول فى مجموعة الوثائق التى نشرها عن فخر الدين الثانى أمير لبنان وبلاط تسكانا — يقول : إنه عند حضور على باشا أمير البحر التركى إلى المياه السورية ، لكى يفض النزاع بين الأمير فخر الدين ويوسف سيفا صاحب طرابلس ، فى يوليو سنة ١٦١٩ ، أرسل الأمير فخر الدين رسالة إلى الباشا التركى يعتذر فيها عن عدم الحضور إليه بنفسه (٢) .

---

(١) A Journal of the First Voyage of Vasco da Gama, 1497-1499. Trans. by E.G. Ravenstein. Hakluyt Society, London ?

Pearce: op. cit. pp. 56-61.

(٢) Carali, P. : Fakhr Ad Dine II. Principe del Libano e la Corte di Toscana (1605-1635). Roma, 1936. p. 99.

وعاونى الأب بولس قرألى (توفى ١٩٤٥ ؟) ببعض الوثائق الهامة لإعداد رسالتى للماجستير . وعرفته شخصياً فى روما فى سنة ١٩٣٥ . ومن آثاره المطبوعة «المجلة البطريركية» و « فخر الدين المعنى =

ويقول الأب بولس قرألى إنه نقل هذه الرسالة عن الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف ، الذى يعتبر فى كتابه عن الأمير فخر الدين ، وكما عبر عن ذلك فى حديث شفوى معى فى زحلة فى صيف ١٩٣٣ ، أنها صادرة عن الأمير إلى الباشا التركى الذى كان يحاربه — ويقصد إبراهيم باشا دمشق . ولكنه يتشكك فى تاريخ صدورها . ولا يمكنه أن يحدده [١] . وأورد الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف نص هذه الرسالة [٢] وقال بدوره إنه قد نقلها وترجمها عن كتاب ريكو عن « تاريخ الإمبراطورية العثمانية [٣] » .

ويظهر أن الواقع فى شأن هذه الرسالة ، هو غير ما يذهب إليه كل من الأب بولس قرألى والأستاذ عيسى إسكندر المعلوف . وذلك لأنه قد أمكننى العثور على النص الذى أخذ عنه نوليس وريكو هذه الرسالة . وذلك فى كتاب مينادوى الرحالة الإيطالى المعاصر الذى زار سورية ولبنان فى أثناء حملة إبراهيم باشا دمشق لتأديب الدروز فى سنة ١٥٨٥ . والرسالة الواردة فى كتاب نوليس وريكو هى بنصها الرسالة التى أوردها مينادوى فى كتابه عن «تاريخ الحرب بين الترك والفرس » ، ويقول : إن ابن معن قد أرسلها إلى إبراهيم باشا فى يوليو ١٥٨٥[٤] . ولا يحدد مينادوى ولا نوليس وريكو مَنْ هو المقصود بابن معن .

وأظن أنه من المستبعد أن يكون المقصود بابن معن هنا هو الأمير فخر الدين

= الثانى ، إداريه وسياسته — السنة العاشرة من لحنه البطريركية شباط — أيار ١٩٣٥» و «رحلة فخر الدين المعنى الثانى إلى إيطاليا » بالإيطالية و « الأمير بشير الشهابى الثانى » و « السوريون فى مصر » .

(١) المعلوف ، عيسى إسكندر : تاريخ الأمير فخر الدين المعنى الثانى . جونية ، لبنان ، ١٩٣٤ . ص ٣٨٥ .

وعيسى إسكندر المعلوف (١٨٦٩ — ١٩٥٦) كون نفسه دراسيا حتى أصبح عالماً أديباً موسوعياً . مارس التدريس وأبدى نشاطاً فى الصحافة وصار عضواً فى مجامع علمية كثيرة وجمع مكتبة عظيمة . ومن آثاره المطبوعة « مجلة الآثار » و « دوس القطوف فى تاريخ بنى المعلوف » . ومن مؤلفاته المخطوطة . الأخبار المدونة والمروية فى أنساب الأسر الشرقية » فى ١٤ جزءاً . وقد أفدت من علمه منذ سنة ١٩٣٣ .

(٢) المعلوف ، عيسى إسكندر : (المصدر المذكور) ص ٣٨٥ — ٣٨٧ .

(٣) Knolles, R. and Ricaut, P : The Turkish History from the Original of that Nation to the Growth of the Ottoman Empire, with a Continuation to this Present Year (1687) 3 vol London. 1687-1700. vol I p. 693

(٤) Minadoi, G . Historia della Guerra fra Turchi e Persiani Venetia, 1594 pp. 279-281.

المعنى الثانى المولود فى سنة ١٥٧٢ ، والذى كان فى زمن حملة إبراهيم باشا غلاماً فى سن الثالثة عشرة . وبذلك نرى أن المقصود بابن معن هنا هو — على الأرجح — قرقماز بن معن والد فخر الدين وليس الأمير فخر الدين المعنى الثانى . وقد حاول إبراهيم باشا أن يحمل قرقماز على القدوم إليه ، ولكنه لم يفعل خشية البطش والغدر به . وبذلك يمكننا أن نستخلص الحقيقة فى شأن كاتب هذه الرسالة . ونعرف أنها كتبت فى يوليو سنة ١٥٨٥ ، آخذين فى ذلك بما أورده ميناوى المؤلف المعاصر ، والذى يحتوى كتابه على أقدم نص مترجم معروف لهذه الرسالة ، مع ملاحظة أن كتاب ميناوى قد طبع فى البندقية فى سنة ١٥٩٤ . وقد نشرتُ أغلب هذه الرسالة فى صورتها الإنجليزية ، وفى صورتها الإيطالية ، فى مجلة كلية الآداب بجامعة (القاهرة) فى سنة ١٩٤٢[١] .

ومن الأمثلة على الشك فى نسبة الأصل التاريخى إلى كاتبه ، أخبار رحلة الأمير فخر الدين إلى إيطاليا (من سنة ١٦١٣ إلى سنة ١٦١٨) . فعندما نشر الدكتور أسد رستم — بالاشتراك مع الأستاذ فؤاد إفرام البستانى المدير الحالى للجامعة اللبنانية فى بيروت — كتاب أحمد الخالدى الصفدى عن تاريخ الأمير فخر الدين المعنى[٢] ، اعتبر أخبار هذه الرحلة من كتابة مؤلف مجهول ، وأنها ليست من تأليف الخالدى الصفدى وأنها مدسوسة عليه[٣] .

---

(١) عثمان ، حسن : فخر الدين الثانى أمير لبنان وبلاط تسكانا (١٦٠٥ — ١٦٣٥) للأب بولس قرألى ، عرض ونقد مع وثائق لم تنشر . مجلة كلية الآداب بجامعة (القاهرة) ، المجلد ٦ ، القاهرة ، مايو ١٩٤٢ . ص ١٣٤ — ١٥٩ .

(٢) الصفدى ، أحمد الخالدى : تاريخ الأمير فخر الدين المعنى . نشره الدكتور أسد رستم والأستاذ فؤاد إفرام البستانى . بيروت ، ١٩٣٦ .

والخالدى الصفدى (توفى حوالى ١٦٢٥) نشأ فى صفد وطلب العلم فى الأزهر ثم رجع إلى صفد وبها درس وأفتى وناب فى القضاء ومن تآليفه « شرح على ألفيه ابن مالك » .

(٣) نشر الأستاذ محمد شفيق غربال مشهدات فخر الدين فى إيطاليا باعتبار أنها من وضع أحمد الخالدى الصفدى بعنوان « أمير سورى فى إيطاليا » . بمجلة كلية الآداب بجامعة (القاهرة) المجلد ٢ العدد ١ . القاهرة ، مايو ١٩٣٤ . ص ٧٦ — ١١١ .

والأستاذ غربال (١٨٩٤ — ١٩٦١) من خريجى مدرسة المعلمين العليا ودرس فى جامعتى ليفربول ولندن وعلم فى المعلمين العليا وفى كلية الآداب بجامعة القاهرة وصار عميداً للكلية . ونقل — فى غير مصلحة العلم بالجامعة — نقل إلى وزارة المعارف العمومية وأصبح وكيلا لها . ويعد من رواد الدراسة المنهجية فى التاريخ الحديث . ومارس نشاطاً متنوعاً فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وفى معهد الدراسات العربية العالية وفى مجمع اللغة العربية وفى منظمة اليونسكو . وكان عميق الفكر مرهف الحس واسع الثقافة . ومن آثاره المطبوعة=

ويسوق الدكتور أسد رستم بعض الأدلة لإثبات وجهة نظره . فيقول : إن لغة أخبار هذه الرحلة ، لا تتفق من حيث اللغة والأسلوب مع لغة متن التاريخ الذى وضعه أحمد الخالدى الصفدى عن تاريخ الأمير فخر الدين المعنى . فبينما يرى هذا العالم الأزهرى يقول « حمداً لمن جعل نظام العالم فضلا منه صلة إلى تصحيح معاش ابن آدم » ، يقرأ فى أخبار هذه الرحلة : « ايش معك — من اين جاى — ايش هذه المسلمين — إلى الدار التى برات المدينة » . ويرى أن تواريخ هذه الرحلة مسيحية بينما تواريخ كتاب الخالدى هجرية . ويجد أن نسخة (ك) لا تحتوى إلا على أخبار وجيزة لهذه الرحلة ، ولا تتفق مع سائر الكتاب . ويقول الدكتور أسد رستم : إن أخبار هذه الرحلة ربما ترجع إلى أحد الخوازنة الذين عُرف عنهم شىء من الاهتمام بتاريخ الأمير فخر الدين ، وكما ذكر الرحالة الفرنسى دى لاروك أن أبا نوفل الخازن قد ألّف فى تاريخ الأمير فخر الدين[1] .

وصحيح أننى لم أطلع على النسخ الخمس التى درسها الدكتور أسد رستم وقارن بينها عندما أقدم على نشر تاريخ الخالدى . ولكننى اطلعت فقط على النسخة الفوتوغرافية من هذا التاريخ الموجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة[2] ، والمنقولة عن

= « بدء المسألة المصرية ونهوض محمد على » بالإنجليزية و « مصر عند مفترق الطرق » و « محمد على الكبير » و « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية — الجزء الأول » و « الجمهورية التركية » استكمالا لمادة الترك فى الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية ، والإشراف على نشر « الموسوعة العربية الميسرة » . وكان له الفضل فى إرسالى فى البعثة الجامعية فى سنة ١٩٣٤ . ولا بأس بأن أقول — للذكرى والتاريخ — إن مشروع تلك البعثة كان قد تعثر لشغل المكان الخالى بقريب لعميد الكلية وقتئذ الدكتور منصور فهمى . وتم تنفيذ البعثة على أيدى الدكتور حسين هيت — خالى — ومحمد شعير بك — مدير الجيزة وصديق الأسرة — ومحمد حسن العشماوى بك — السكرتير العام لوزارة المعارف . وكان للأستاذ غربال الفضل — مع الدكتور أسد رستم — فى حثى على البقاء فى إيطاليا فى سنة ١٩٣٥ . وكان الأستاذ غربال أقرب أساتذتى إلى ، وقيل إننى كنت أقرب — أو من أقرب — تلاميذه إليه . وكان يعارض دراستى لدانتى . ولكن حينما أرسلت إليه ترجمة الجحيم كتب إلى فى ٦ نوفمبر ١٩٥٩ يقول : « كنت سعيداً بأن أتلقى ترجمتك لدانتى — كنت سعيداً من أجلك — فقد لقيت على ما يظهر الكثير من أجل دانتى — وإن إتمام العمل الذى يصحب الإنسان عمراً نوع من فك الرقبة — فهنيئاً لك بهذه الحرية . وبقى — بعد أن تتم ما تبقى من دانتى — أن تدخل (فى اعتبارك) ما اكتسبت من نظرته للإنسان . وعلى كل حال فلكل يوم شأنه . ولنجعل اليوم يوم ارتياح لشأن تم وللغد شؤونه » .

(١) الصفدى ، أحمد الخالدى : (المصدر المذكور) . المقدمة ص يد .

(٢) دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٤٩١٢ تاريخ مخطوط . وكان لأحمد رامى أستاذى فى مدرسة المعلمين الأميرية فى ١٩٢١ الفضل فى تصوير هذه النسخة من ميونخ فى ١٩٣٣ .

نسخة المكتبة العامة فى مونيخ ، وهى النسخة التى يرمز لها الدكتور أسد رستم بالحرف (م) [١].

وعلى الرغم من ذلك فإننى أقدّم بعض الملاحظات على الأدلة التى قدّمها الدكتور أسد رستم ، مستمدة من نفس الكتاب الذى نشره ، ومن مخطوطة القاهرة .

١ — نلاحظ من ناحية اللغة أن لغة الجزء الذى يعترف الدكتور أسد رستم بنسبه إلى الخالدى ، ليست كلها فى المستوى اللغوى للصفحات الأولى التى يقتبس منها النص السابق الذكر . وكثيراً ما نجد فى هذا الجزء ألفاظاً وأساليب عامية لا تناسب لغة العالم الأزهرى . ومن الأمثلة على ذلك : « وكان الشيخ عمرو سبق أهله وجاء حتى يعلم الأمير فخر الدين ويركبه من قلعة بانياس فوصل بحال الليل إلى باب القلعة ودق الباب على البواب حتى يروح يعلم الأمير[٢] » ، و « قال الحاج كيوان ان كان ما بتروح انت أنا بروح واقسم على الأمير أن يرسل يجيب له جواره[٣] » ، و « رمى البندق من برّا[٤] » ، و « لولا انفضاض العساكر لكان مراده يتخفا بناس قلايل [٥] » ، و « لكن نفذ الأمر فما بقى يمكن الدفاع لأن الوقت كان غير مساعد[٦] » .

ونلاحظ من الناحية اللغوية أيضاً أن الخالدى يذكر فى أحد المواضع من تاريخه ، وصول رسالة من الأمير فخر الدين فى إيطاليا إلى أهله وذويه فى لبنان . ولغة هذه الرسالة تشبه اللغة السائدة فى الجزء الخاص برحلة الأمير فخر الدين . فترد فى هذه الرسالة الجمل الآتية : « وصلوا إلى جزيرة كنديا التى تحت حكم البنادقة وصار عليهم فرتونة عظيمة » ، و « فطلع الامير فخر الدين فى مدينة الكرنا [٧] ولاقاه وزير غران دوكا بمن معه واستقبلوه بالإعزاز والإكرام وأنزلوه فى دار وعينوا له جميع لوازمه بالتمام » ، و « بعد أربعة أيام وصل الغليونان بالحريم

---

(١) المكتبة العامة فى مونيخ تحت رقم ٤٢٧ مخطوطات عربية .
(٢) الصفدى ، أحمد الخالدى : (المصدر المذكور) . ص ١٨ .
(٣) الصفدى ، أحمد الخالدى : (المصدر المذكور) . ص ٨ . والمقصود جواريه .
(٤) الصفدى ، أحمد الخالدى : (المصدر المذكور) . ص ٢١ .
(٥) الصفدى ، أحمد الخالدى : (المصدر المذكور) . ص ٢٤ .
(٦) الصفدى ، أحمد الخالدى : (المصدر المذكور) . ص ٤٩ .
(٧) الكورنا هى ليفورنو ميناء تسكانا .

والحاج كيوان رقد كان الأمير فخر الدين آيس منهم وقطع الرجا عنهم »، و « توجه بنفسه وفى خدمته وزير الدوكا إلى مدينة الفرنسا [١] تحت اغران دوكا[٢] » .

وترد فى أخبار الرحلة الجملة الآتية : «فارسلوا اعلموا الدوكا بذلك فعين وزيره الكبير المسمى لورنسو أنه يأخذ الأمير إلى عنده » ، و « حضرة الأمير بقا فى هم وأفكار من جهة المركبين الذين افترقوا عنه الذين فيهم اعياله والحاج كيوان فمن حكمة الله تعالى وصلوا الى اسكلة الغورنا[٣] بالسلامة[٤] » .

فإذا أنكر الدكتور أسد رستم نسبة هذه الرحلة إلى الخالدى ، فلماذا لا ينكر أيضاً نسبة هذه الرسالة المذكورة آنفاً إليه ، وأسلوبها مشابه للأسلوب الذى تتضمنه أخبار رحلة الأمير فخر الدين ؟ وصحيح أنه يتضح فى أخبار هذه الرحلة الأسلوب العامى أكثر مما يتضح فى سائر الكتاب . وربما يرجع ذلك إلى أنه فضّل تسجيل كلمات الأمير حينما كان يقص عليه هذه الأخبار ، وكما يذكر الخالدى ذلك إذ يقول : « وذكر حضرة الامير مفصلا وأما مدينة بليرموا مدينة عظيمة بصور لها اربع ابواب . . . [٥] » .

٢ — ومن ناحية التوقيت . يقول الدكتور أسد رستم : إن تواريخ كتاب الخالدى هجرية وإن تواريخ الرحلة المجهولة المؤلف تواريخ مسيحية . وهذا غير صحيح تماماً . فلقد ورد فى موضع واحد من الرحلة التاريخ المسيحى (السريانى) حيث نجد « وارما المرسة يوم قاسم كون وهو يوم خمسة وعشرين من شهر تشرين أول ومدة سفرهم من اسكلة صيدا إلى اسكلة النورنا ثلاثة وخمسون يوماً[٦] . ومع ذلك فإن الرحلة تذكر التاريخ الهجرى فى أكثر من موضع فنجد « وعادوا الى البر وكان ذلك فى السنة المذكورة سنة اربعة وعشرين وألف[٧] » ، و « بقى يصلى الأمير جماعة

---

(١) الفرنسا هى فورنسا مركز حركة النهضة فى إيطاليا .

(٢) انصفاى ، أحمد الخالدى : (المصدر المذكور) ص ٣٢ .

(٣) الغورنا هى ليفورنو كذلك .

(٤) رحلة الأمير فخر الدين إلى أوربة الذى نشره الدكتور أسد رستم والأستاذ فؤاد إفرام البستانى — على أنها مجهولة المؤلف — كملحق لتاريخ الأمير فخر الدين المعنى المشار إليه . وكما وردت فى النسخة (م) والنسخة (ج ب) بين المخطوطات التى وقعت تحت أيديهما . ص ٢١٠ .

(٥) الرحلة : (المصدر المذكور) . ص ٢٢١ .

(٦) الرحلة : ص ٢٠٨ .

(٧) الرحلة : ص ٢٢٨ .

فى رمضان[١]» ، و « نزلوا المركب فى أواسط شهر رمضان سنة سبع وعشرين بعد الألف[٢]» .

٣ — ويميل الدكتور أسد رستم إلى اعتبار هذه الرحلة من وضع أحد الخوازنة الذين عملوا فى خدمة الأمير فخر الدين . ولكن هناك بعض العبارات التى تجعلنا نشك فى هذا الرأى مثل : « لان فى بلاد النصارى امارة عدة[٣]» ، و « وكذلك لهم ديوره [٤] فيها رجال يقال لهم كبوشيين ما يلبسوا قميصاً ولا لباساً إلا الصوف على الزلط ويحلقوا وسط رءوسهم ودايره ويخلوا لهم إكليل وذلك لأجل الشوك الذى حطوه اليهود على راس المسيح يوم صلبه على زعمهم[٥] » ، و « فى بلادهم يزرعوا الكتان وكذلك فى جميع بلاد النصارى[٦]» . ولا ينتظر من مسيحى أن يكتب هذا الكلام ، الذى يبدو فيه تناول تفصيلات تدل على دهشة المشاهد ، ولا يعتقد المسيحيون أن المسيح قد نجا من الصلب ، لأن صلبه وعذابه للتكفير عن خطايا البشر ، هو من أسس العقيدة المسيحية . ومن المستبعد إذاً — بل من غير المعقول — أن يكتب مثل هذا الكلام أحد الخوازنة المسيحيين الموارنة الكاثوليك . ولا ينتظر أن تصدر مثل هذه الأقوال إلا من شخص مسلم .

٤ — صحيح أن الرحالة الفرنسى دى لاروك ذكر أن أبا نوفل الخازن قد ألّف كتاباً فى تاريخ الأمير فخر الدين [٧] ، ولكنه لم يحدد اسم المؤلف ولا اسم الكتاب ، ومن غير المعقول أن يكون هو كاتب هذه الرحلة ، لأنه من المسيحيين الموارنة .

٥ — لقد فصل الدكتور أسد رستم فى الكتاب الذى نشره بالاشتراك مع الأستاذ فؤاد إفرام البستانى ، ما كتبه الخالدى عن أخبار سورية ولبنان (ص ٢ — ٢٠٧) ، عن الجزء الذى يحتوى على أخبار رحلة الأمير فخر الدين إلى أوروبا (ص ٢٠٨ — ٢٤١) ، باعتبار أنه لا توجد علاقة ما بين مؤلفى كل من هذين القسمين .

---

(١) الرحلة : ص ٢٣٥ .
(٢) الرحلة : ص ٢٣٨ .
(٣) الرحلة : ص ٢١٦ .
(٤) ديوره أى أديرة .
(٥) الرحلة : ص ٢١٩ .
(٦) الرحلة : ص ٢٢١ .
(٧) De la Roque, R : Voyage en Syrie, Paris, 1772. V. II. pp. 132-133.

ولكننا إذا أجرينا المقابلة بين هذين القسمين وجدنا الارتباط وثيقاً بينهما فى أكثر من موضع . ومثال ذلك أن أخبار الرحلة تبدأ بما يلى : « وكنا قد ذكرنا قبل هذه نزول حضرة الأمير فخر الدين فى البحر فى الثلاث غلايين[١] » . وهذه إشارة إلى كلام سابق ورد فيما كتبه الخالدى عن الأمير حيث يقول : « وسافر من اسكلة صيدا الامير فخر الدين فى الثلاث غلايين[٢] » . وورد أيضاً فى أخبار الرحلة « ودار المركب صوب اسكلة عكا وطلع إلى البر كما سيأتى ذكره فى موضعه انشا الله تعالى[٣] » . وهذا الموضع المقبل لا يأتى فى الرحلة ذاتها بل يأتى فى أخبار الخالدى حيث يقول : « واما الأمير فخر الدين فانه لما قارب اسكلة عكا ارسل قدامه اناساً متعينين ليكشفوا له اخبار البلاد . . . فلما تحقق الأمير فخر الدين ذلك نزل من الغليون الذى جاء فيه وطلع الى البر[٤] » .

٦ — يذكر الدكتور أسد رستم أن أخبار هذه الرحلة وردت فى متن النسختين (م) و (ج ب) ، وهما من النسخ الأساسية التى اعتمد عليها فى نشر الكتاب المشار إليه . ولقد وردت أخبار الرحلة فى النسخة (م) — أى نسخة مكتبة مونيخ التى اعتمدتُ فى دراستى على صورة منها موجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة — وردت متفرقة ومتداخلة فى أخبار حوادث سورية ولبنان ، أى فى تاريخ الأمير فخر الدين المعنى . وأرقام صفحات هذه الرحلة المخطوطة هى من ٣٥ إلى ٤٦ ومن ٦٠ إلى ٧٦ ومن ٧٩ إلى ٨٢ ومن ١١٥ إلى ١٢٦ ومن ١٢٧ إلى ١٣٠ . وتأتى أخبار سورية ولبنان قبل وبعد الصفحات الخاصة بالرحلة . وتنتقل هذه النسخة (م) من أخبار رحلة الأمير فخر الدين إلى حوادث سورية ولبنان ، وبالعكس ، بحسب ترتيب وقوعها الزمنى .

٧ — يقول الدكتور أسد رستم إن النسخة (ك) — نسخة الشيخ كسروان الخازن وهى من النسخ الرئيسة التى اعتمد عليها — لا تحتوى إلا على أخبار وجيزة لهذه الرحلة . ويُستفاد من دراسة الدكتور أسد رستم أن النسخة (ك) ترجع إلى أواخر

(١) الرحلة : ص ٢٠٩ .
(٢) الصفدى : ص ١٩ .
(٣) الرحلة : ص ٢٣٩ .
(٤) الصفدى : ص ٦٩ .

القرن الثامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر ، وأن النسخة (م) — أى نسخة مونيخ أو القاهرة — قد تكون أحدث قليلا . وحتى لو ثبت أن النسخة (ك) أقدم من النسخة (م) فإن هذا لا يعدّ دليلا قاطعاً على أن النسخة (ك) هى أصح أو أقرب النسخ إلى المخطوط الأصلى بخط الخالدى ، الذى هو ضائع مجهول . وربما تكون النسخة (م) أقرب إلى ذلك الأصل المجهول . وليس لدى أحد الدليل القاطع على مدى الصلة بين النسختين (ك و م) والأصل الأول الضائع .

وعلى ذلك فإننى أميل إلى اعتبار أخبار الرحلة التى قام بها الأمير فخر الدين المعنى إلى أوروبا ، من تأليف أحمد الخالدى الصفدى ، وجزءاً من تاريخه عن الأمير ، اللهم إلا أن تكون هناك أدلة أخرى لدى الدكتور أسد رستم أو لدى غيره من الباحثين ، لإلقاء مزيد من الضوء على هذه المسألة .

ويبين هذا كله مدى الصعوبات التى تعترض الباحث فى التاريخ عند السعى إلى إثبات شخصية كاتب أصْلٍ تاريخىٍّ ما ، وتوضح اختلاف الباحثين فى استنتاجهم وما يتعرضون له من دواعى الشك . ومن العمل على الخروج من الإنكار أو الشك إلى اليقين أو إلى ما يقرب منه بقدر المستطاع . بالاستعانة بكلٍّ من وسائل النقد الظاهرى والباطنى — وسوف يخصص جزء لهذا النوع الأخير فى موضع مقبل . ولابد دائماً للباحث فى التاريخ من الصبر والتأنى والحذر .

ومن الأمثلة كذلك فى هذا الصدد — دون بذل عناء كبير فى تحرّى الحقيقة — أن الباحث فى التاريخ قد يعثر فى أرشيف فلورنسا التاريخى على مجموعة من الكتابات المخطوطة عن المصادمات البحرية بين العثمانيين والتسكان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، جمعها أحد المهتمين بإبراز بطولة التسكان ، إذْ يذكر انتصاراتهم دون هزائمهم . ويضع اسمه على هذه الكتابات ، ألا وهو بستيانو بالبيانى ، ولكنه لا يذكر المصادر التى أخذ عنها [٤] . ولم يكن من رجال الحرب حتى يقدّر الباحث قيمة معلوماته . ولكن المزيد من البحث فى أرشيف فلورنسا ذاته أوضح له أن بالبيانى قد اقتبس هذه المعلومات من عدة تقريرات

Archivio di Stato di Firenze - Strozzani I. 145 Imprese delle Galere (1554-1619) Bastiano Balbani pp 1-45 b.

وضعها بعض رجال الحملات البحرية التسكانية ، بقيادة بعض القواد مثل الفارس فرنتشسكو دل مونتى والأميرال إنجرامى ، فى الشرق الأدنى وفى شمال أفريقيا فى سنة ١٦٠٧ [١] . وبذلك تتحدد قيمة هذه المعلومات من الناحيتين البحرية والسياسية .

ومن الأمثلة على التثبت من شخصية كاتب الأصل التاريخى . أن الباحث فى التاريخ قد يجد خطاباً بالإيطالية مدوناً فى باريس بتاريخ ٢٩ يونيو سنة ١٧٨٩ ، موجهاً إلى حكومة على رأسها مجلس شيوخ . ولكن بغير تحديد اسم الحكومة أو اسم الكاتب . وتدل دراسة هذا الخطاب على أن كاتبه هو أحد السفراء الإيطاليين فى فرنسا . فمَنْ هو ذلك السفير ؟ وإلى أية حكومة أرسل خطابه ؟ يدل البحث الأوّلى على أن الحكومة الإيطالية الوحيدة التى كان على رأسها مجلس شيوخ فى سنة ١٧٨٩ هى جمهورية البندقية . فالخطاب إذاً قد كتبه سفير البندقية فى فرنسا إلى حكومته . فمَنْ هو ذلك السفير ؟ البحث فى سجلات أرشيف البندقية يدل على أن سفير البندقية فى باريس فى ذلك الوقت كان هو أنتونيو كابلّو [٢] .

وربما يحتوى الأصل التاريخى على معلومات عن حوادث رآها شاهد العيان بنفسه ، أو على معلومات سمع بها ونقلها عن الغير ، فينبغى أن يحدّد الباحث بقدر المستطاع أجزاء الأصل التى دوّنها الكاتب بناء على ما شهده بنفسه . وتُعدّ أصلا من الطبقة الأولى . كما يحدّد أجزاء الأصل التى اعتمد الكاتب فى تسجيلها على الغير ، وتعد أصلا من الطبقة الثانية ، مع تحديد مصدر هذا النوع الأخير من المعلومات . إذا أمكن ذلك .

ومن الأمثلة التى توضح ذلك ما ذكره كميل ديمولان فى بعض ما كتبه عن المشادة التى حدثت فى باريس بين مندوب لويس السادس عشر وبين ميرابو ، حينما اجتمع مجلس طبقات الأمة فى ٢٣ يونيو سنة ١٧٨٩ . ويعرف الباحث من التاريخ أن ذلك الاجتماع لم يكن حضوره مباحاً للجمهور . ولم يكن كاميل ديمولان عضواً فيه . وبذلك لم يحضر اجتماعه ولم يسمع بنفسه ما قاله ميرابو لمندوب الملك . فكلامه عن هذه المشادة أخذه عن طريق السماع ، ولذلك يعدّ أصلا من

(١) Archivio di Stato di Firenze : Mediceo. 2077. pp. 747-749 b.; 751-758 b.

(٢) Fling : op cit. pp 63-66

الطبقة الثانية . أما وصف كاميل ديمولان لما شهده خارج مكان الاجتماع من قدوم الملك أو احتشاد الجماهير . فيعدّ أصلا من الطبقة الأولى (١) .

وفى بعض الأحيان يجد الباحث كتاباً طُبع فى باريس فى سنة ١٨٩٠ مثلا ، ومن المحتمل أن يكون صاحب الاسم الموضوع عليه قد نقله بنصه عن مؤلف سابق وضعه فى سنة ١٨٥٠ ، دون أن يعترف بوجوده . وصحيح أن السطو على كتابة الغير ، المطبوعة وغير المطبوعة أو النقل منها بغير حساب ، قد نقص فى الزمن الحديث ، ويمنعه القانون أحياناً ، إلا أنه لا يزال شائعاً فى بعض الأقطار وفى بعض البيئات ، وكثيراً ما يجد الباحث فى التاريخ أن بعض الوثائق والأصول ليست سوى نقل جزئى أو كلى لوثائق وأصول سابقة ، سواء أقصد الناقل السرقة وادعاء المعلومات لنفسه أم جمعها لأنها تهمه وتفيده (٢) ، ثم جاء من بعده مَنْ وجدها منسوبة إليه . فعلى الباحث فى التاريخ أن يتعقّب الكاتب الأصلى بقدر المستطاع .

وقد يكون الأصل التاريخى من عمل أكثر من مؤلف واحد . فالكثير من الأصول تدخل عليها إضافات وزيادات وتعليقات فى مواضع مختلفة ، ثم تطبع ويُعدّ الأصل وما أضيف إليه كأنه من وضع مؤلف واحد . فلابد من السعى إلى كشف الحقيقة . وإذا وُجد الأصل المخطوط كان من الميسور تمييز الأصل من الإضافات والزيادات التى طرأت عليه . أما إذا ضاع الأصل المخطوط ولم يبق أمام الباحث سوى المطبوع منه ، أصبحت المسألة أكثر صعوبة . فعلى الباحث أن يدرس اللغة ، لكى يرى أهى واحدة أم متغيرة ؟ وهل الأسلوب واحد أم متغير ؟ وهل تسود الكتاب فكرة واحدة وروح واحدة ؟ وهل توجد خلافات ومتناقضات أو فجوات فى تسلسل الأفكار ؟ وإذا كان الكاتب الذى أضاف فى موضع أو أكثر من النص الأصلى رجلا واضح الشخصية ، أمكن تمييزه والتعرف عليه ، وإلا بقى مجهولا لدى الباحث فى التاريخ (٣) .

ولنعرض لمثال حققه الدكتور أسد رستم فى هذا الصدد ، إذْ عثر على مخطوطة صغيرة تتناول أخبار الدولة المصرية العلوية فى سورية فى زمن إبراهيم باشا ، وكانت

---

(١) Fling : op. cit. p. 79.

(٢) Langlois and Seignobos : op. cit. p. 94.

(٣) Langlois and Seignobos ; op. cit. p. 93.

غفلاً من الإمضاء . ووجد الدكتور أسد رستم أنها ليست تاريخاً واحداً بل ثلاثة تواريخ ، قسمها إلى (ا و ب و ج) . ولاحظ أن هذه الأقسام لا تعطى حوادث مسلسلة ، ولا يبدأ قسم منها حيث ينتهى سابقه ، وتتكرر الحوادث فى أقسامها الثلاثة . ولاحظ أيضاً أن (ا و ج) يستعملان التاريخ الهجرى أما (ب) فيستخدم التاريخ المسيحى . ووجد أن (ج) هو أكبر الأقسام وأن أخباره تتعلق بحوادث لبنان ، مع إعطاء تفصيلات شخصية ديرانية محلية عن دير القمر وبيت الدين . فرجّح الدكتور أسد رستم أن كاتب (ج) شخص لبنانى ديرانى ، أو أقام بدير القمر على الأقل . فقصد إلى المكتبة البطريركية فى بكركى ، وفحص أوراق سنوات ١٨٣١ — ١٨٤١ ، وبعد دراسة طويلة عثر على رسائل مكتوبة بنفس الخط الموجود فى (ج) وبنفس اللغة واللهجة ، وعليها إمضاء القس أنطون الحلبى . فاتجه الدكتور أسد رستم إلى بطريرك الموارنة مارى إلياس الحويك ، وعرف منه أن القس أنطون الحلبى كان من المقربين إلى الأمير بشير الشهابى وأنه سكن بيت الدين . وأنه كتب عن أحكام الأمير بشير ، وعن حروب إبراهيم باشا فى سورية . وأن أغلب ما كتبه قد أحرق فى أثناء حوادث الصدام بين المسيحيين والدروز فى سنة ١٨٤٥ . وبذلك عرف الدكتور أسد رستم أن القس أنطون الحلبى هو مؤلف الجزء (ج) من تلك المخطوطة ، وأنه كتبه فى زمن وقوع الحوادث التى تناولها * .

وكما سبق أن أشرنا ، من الضرورى أن يعرف الباحث كل ما يمكن معرفته عن شخصية كاتب الأصل التاريخى وصفاته ، لتقييم كتابته . وأحياناً يمكن للباحث أن يجمع المعلومات اللازمة عن شخصية الكاتب من بعض التراجم ، أو من الأصل التاريخى ذاته . فمثلا بعض الكتابة المؤرخة فى ٢٤ يونيو سنة ١٧٨٩ عن بعض حوادث الثورة الفرنسية فى باريس وفرساى ، يعرف الباحث من لغتها وأسلوبها وطريقة عرضها ومعلوماتها أن كاتبها شخص مثقف ، وأنه شاب قوى الجسم يمكنه أن ينتقل من باريس إلى فرساى فى أثناء المطر المنهمر . ويدرك الباحث أنه شخص متحمس جرىء ثورى ، يتكلم بصراحة ، ويقرر أن ممثلى الشعب لا يهابون الموت . ويعلم الباحث أيضاً أن الكاتب كان مهتماً بالحوادث التى شهدها . وذلك لدقة

* رستم ، أسد : مصطلح التاريخ (المصدر المذكور) . ص ٣٤ - ٤٢ .

وصفها وحُسن التعبير عنها . ولا ريب أن هذه الأوصاف تنطبق على كاميل ديمولان الذى كتب عن تلك الحوادث[١].

والمسألة التالية فى هذه الناحية من النقد التاريخى ، هى معرفة الزمن الذى دُوِّن فيه الأصل التاريخى . فقد يكون الأصل صحيحاً غير مزيف ، وقد يكون كاتبه من الأشخاص الذين يتحرّون الصدق والبعد عن الهوى ، ومع ذلك فقد يُنقص من قيمته التاريخية بُعد الزمن بين وقوع الحادث ورؤيته وبين تدوين أخباره . فالذاكرة تخون الإنسان ، وكلما بَعُدَ بالكاتب العهد عن زمن وقوع الحادث تعرّض لأن يفوته قليل أو كثير من التفاصيل الخاصة ، مهما كانت رغبته فى قول الصدق قوية ، ومهما حاول استرجاع وقائع الماضى . فإذا لم يحدد الكاتب التاريخ الذى دوّن فيه ما كتبه ، فكيف يستطيع الباحث أن يحدّد ذلك ولو على وجه التقريب ؟

يمكن للباحث فى التاريخ أن يضع حدّين لبدء الأصل التاريخى ونهايته ، بناء على دراسة محتوياته ؛ أى أنه يعيِّن التاريخ الذى لا يمكن أن تكون الحوادث قد وقعت قبله ، والتاريخ الذى لا يمكن أن تكون قد وقعت بعده . ولتحديد ذلك ينبغى أن يكون ملما بثقافة تاريخية واسعة تتعلق بالعصر الذى يدرسه . ومن الواضح أن الأصل التاريخى يدوَّن بعد آخر حادث ورد به . ولكن لا يُعرف دائماً متى تم ذلك التدوين ، أبعد آخر حادث ورد به بزمن قصير أم طويل . وهل يمكن تعيين تاريخ تدوينه على وجه التحديد ؟

وإذا فرضنا — جدلا — أن خطاب سفير البندقية فى باريس — المشار إليه آنفاً — لم يكن مؤرخاً ، فمن الممكن التعرّف على تاريخ كتابته بدراسة محتوياته . فالحوادث التى ذكرها السفير أنتونيو كاپلو هى حوادث يونيو سنة ١٧٨٩ ، وآخر حادث ذكره هو اجتماع مجلس طبقات الأمة فى ٢٧ يونيو سنة ١٧٨٩ . وعلى ذلك فمن المرجح أن يكون السفير قد دون خطابه بعد ذلك الحادث مباشرة وقبل أن يقع حادث آخر مهم فى نظره ، وكان من واجبه أن يكتب عنه . ومن المعروف أن مجلس طبقات الأمة قد اجتمع بعد ذلك فى ٣٠ يونيو سنة ١٧٨٩ . وبذلك يكون السفير كاپلو قد كتب خطابه إلى مجلس شيوخ البندقية فى ٢٨ أو فى ٢٩ يونيو سنة ١٧٨٩[٢] .

---

(١) Fling : op cit. pp 67-69.

(٢) Fling : op it. pp. 72-73.

ثم يواجه الباحث فى التاريخ مسألة تعيين المكان الذى دُوِّن فيه الأصل التاريخى ، وهى مكمِّلة ومرتبطة بما سبق. وسواء أكان النص أمام الباحث أصلا تاريخيًّا من الطبقة الأولى أم كان أصلا تاريخيًّا من الطبقة الثانية . فينبغى على الباحث أن يبذل وسعه لكى يعرف مكان تدوينه . فهل دوّن شاهد العيان أخبار الحوادث فى مكان حدوثها أم فى مكان بعيد عنه ؟ وهل أخذ معلوماته عن أشخاص شهدوا الحوادث بأنفسهم ، وبذلك تصبح هذه المعلومات مصدراً من الطبقة الثانية ؟ وأين كان ذلك ؟ وهل كان التدوين فى مكان يجعل كاتب الأصل التاريخى قادراً على تصوير الوقائع تصويراً صحيحاً ، أم أن التدوين حدث فى مكان بعيد . واعتمد على الذاكرة والخيال فى سرد الوقائع ؟

وقد يمكن التوصل إلى معرفة ذلك من المعلومات العامة عن الكاتب . فمثلا نجد بانى عمدة باريس السالف الذكر قد كتب مذكراته فى ربيع سنة ١٧٩٢ . والبحث فى تاريخ حياة بانى يعرفنا أنه كان فى ذلك الوقت مقيماً فى نانت . وإذاً فقد كتب مذكراته فى نانت وليس فى باريس مسرح الحوادث التى كتب عنها [1] . ويتدخل القرب والبعد عن مكان الحوادث فى تقدير المعلومات الواردة فى الأصل التاريخى ، وإن لم يكن ذلك من الأدلة القاطعة على مدى الصدق فيها .

---

[1] Fling : op. cit p. 76.